معالم الطريق إلـى القراءة الاحترافية لكتاب (دلائل الإعجاز)

أ.د. محمود توفيق محمد سعد(*)



كتاب (دلائلِ الإعجاز) معقودٌ لتَبْيينِ معالم الإعجازِ البلاغيِ في البيانِ القُرآني، ودِقيقِ ملامحه، وليس معقودًا لبيانِ أدلّة الإعجاز القرآني والبراهين على ذلك، فقد قامت بذلك (رِسَالة الشَّافية) الَّتي صُنِعَت قَبلَ كتابِ (دَلائلِ الإعجاز) وبعد صناعةِ كتاب (أسرار البَلاغة).

وهي منْ وجه موضوعها أدخلُ في (عِلم الكلام)، ومن وجه منهاجِ الإبانةِ أدخل في (علم البلاغةِ الإقناعيةِ الحِجاجية العربيِّ) من وجهٍ، فهي شركةٌ بين (المُتكلّمين) و(البلاغيين)، وعنوانُها بالغُ الدَّلالة على ما أقيمتْ له الرِّسالةُ، وفيه تعريضٌ فَنِّيٌّ بمَن تحاورُهم الرسالة: الرافضين القولَ بإعجازِ القرآن، والقائلين بأنَّه معجزةٌ بالصَّرفة.

وهذا مَسلَكٌ لطيفٌ طريفٌ مِن عبدِ القاهر فِي تسمية رسالته، وحسنُ عَنْوَنةِ الأسفار من (براعةِ الاستهلال).

قولُ عبدِ القاهر في عنوانِ الكتابِ: (دلائل ليس جمعًا لكلمة (دليلٍ؛ أي: برهان) بل هو جمع كلمة (دَلالة)، فقارِئ هذا الكتاب مَعْنِيٌّ باستبصار معالم الإعجاز البياني وملامحه الدَّقيقة واللَّطيفةِ الَّتي لا تتناهى، وهِي دَلالاتٌ متجليَة في صورة (المعنى القرآني).

معدِنُ بلاغة البيان عامَّة، وبلاغةِ القرآنِ خاصَّة إنَّما هو المَعنى، وصورة المعنى إنَّما هي مجلاة هذا المعنى ومِرآتُه ومشهدُه، تنطبعُ خصَائص المعنَى في صورتِه، ثُمَّ تدرك تلك الخصائص من البصر في صُورتِه، فالعناية بِمدارسة (الصورة) إنما هو من عَظِيم العِنايَةِ بالمعنَى، وسبيلُ ذلك (الاستنباط) وفقَ أصولٍ وضوابطَ محرَّرةٍ.

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

ولمَّا كان (المعنَى القرآني) مقدسًا، فهو هدى ورَحمة وموعِظة وشفاء وذكرَى كانَت صورتُه السَّمعية والكتابية مقدسة، فإذا ما رُقِنَت هذِه الصُّورةُ على صَحيفةٍ اكتسبَتْ هذه الصَّحيفةُ قُدسِيَّةً، فحَرُم على المسلم لَمسُها على غير (وضوء)، فكيف إذا ما رُقِنَ المَعنَى القرآنيُّ في قلبِ المرتِّل المتدبر للقرآن؟!

إنَّ الأمرَ جِدٌّ عظيمٍ.

وهذا وجهٌ مِن وجوهِ إعجازِ القرآن التي لَن تتناهَى كالمَغفولِ عنه، أوْ كالمَسْكوت عنه على جلالِه، وهذا المعنى القرآني متضمنٌ ثلاث كليَّاتٍ قائمةٍ فيها، وقائم بها، هذه الثلاثُ هي: (الوحدانية)، و(جَلالُ الأُلوهِيَّة) و(جَمالُ الرُّبوبيَّة) لا تفارقه أبدًا سواء كان المَعنى القُرآنيُّ معنًى مكنوزًا في (جملة) في سياقِها أو (آيةٍ) أو (نجمٍ) أو (مَعقِد) أو (سورة).

ومَن تدبَّر جملةً فما فوقها في القرآن في سياقها، ولم تُدرك بصيرتُه هذِه الثلاثة: (الوحدانية)، و(جَلالُ الأُلوهِيَّة)، و(جَمالُ الرُّبوبيَّة)، ولم يستطعمها فؤادُه الرَّشيد فما هو بمدرك شيئًا من دلائل إعجاز بَلاغة القرآن.

إذا ما أردْتَ أن تقرأ آيةً قرآنية في سياقها القريبِ (السِّباق واللَّحاقِ) وسِياقِها المَديد (السِّياق السُّوريِّ) قراءة بلاغيَّة، فأوَّل ما ينبغي أن تدركه بصيرتُك فيها معالمُ هذه الكليات الثَّلاث الذي أشرتُ قبْلُ إليْها، ثم من بعد دقائق لطائف معاني الهدى السِّياقية الإحسانية؛ ليسْتطعم فؤادُك شيئًا ممَّا فيها من: الهدَى، والرحمة، والموعِظة، والبشْرَى، والشِّفاء، والذِّكرَى، والفرقان، وكلُّ ذلك إنما هو طَلِبةُ كل قلبٍ متدبرٍ آياته وسُورَه، ولا سيَّما الفؤاد البلاغيِّ العربيِّ.

ولعلك لو تلبثتَ مستبصرًا متدبرًا قوله تعالى في سورة (أمِّ الكتاب): ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).

فإنَّك تجد معنى (الوحدانية) جِدَّ حاضرٍ وظاهرٍ ظهور الشمس في كبد السَّماء، وتجد في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ جلالَ الألوهية ظاهرًا، وجمال الرُّبوبية لطيفًا، وفي ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جمالَ الرُّبوبيَّة ظاهرًا وجلال الألوهية لطيفًا.

وأهلُ العلم وطلابه يتفاوتون في إدراك بصائرهم هذه الكليات الثلاث في آيات الذكر الحكيم، وجميعُ آيات الذِّكرِ الحكيم تدورُ حول قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)؛ فهي أمّ المعنى في كتاب اللهِ الحكيم.

كتاب (دلائل الإعجاز) وما شاكله من

أسفارِ أعيانِ أهل العلم في أي بابٍ من أبواب العلم، يجبُ أن يقرأ قراءة احترافية، والقراءة الاحترافية تكونُ من أربعِ قراءات متصَاعدةٍ:

القِراءة الأولى:

لتحصيلِ العلم الدَّقيق المحيط بقضايا ومسائل هذا العلم، ومذاهب الأعيان وآرائهم فيها، وهذه يحسن أن تصنع على عين خبيرٍ بالسِّفر الذي يُقرأ، وأن تكونَ قراءة حِوارٍ ومناقشةٍ، لا قراءةَ تلقين، وأن يكونَ طالبُ العلمِ هو القارئ، والشيخ مُصغيًا، وطالبُ العلم عارضًا ما فهم، والشيخ مبصرًا حركة عقلِ الطالبِ، ثم يُقوِّم الشيخُ بعد العرضِ عوجه، ويسدِّد خلله، ويصوِّب خطأه، مبينًا له أسبابَ ما وقعَ فيه، ثُمَّ يَهدِيهِ إِلَى مسالِك ما لطف من مكنون الكتابِ، ومصادر هذا المكنون التي استمدها منها، وإلى رَبط القضايا ببعضِها، وما بيْنها من اجتماعٍ وافتراقٍ، واختلافٍ واتِّفاق، وهكذا حتَّى يقوَى علَى السَّبرِ والتَّفتيشِ وكشف أنسابِ القضايا والمسائلِ في الأسفارِ الأخر، وفنونِ العلمِ الأخرَى، فإذا لم يجد طالبُ العلم من الأشياخ من يصنعُ معه ذلك -والظنُّ أنه لن يجد في زماننا- فحُقَّ عليه أن يمارسَ هذا مع عديلين له في طلبِ العلم بينهما توافقٌ نفسيٌّ وعقليٌّ وأخلاقيٌّ، فإن المدارسة على العلمِ تُعدِي كما يقُول أعيانُ أهلِ العلمِ.

والقراءة الثانية:

استبصار منهاج صانعِ السفر في التفكير في هذه القضَايا والمسائل، وموقفه من مذاهب سلفه وأقرانه وآرائهم في هذه القضَايا والمسائل، وهذه القراءة هي التي تضع طالب العلم على أولى مدرجة صناعة العالم الرباني الذي يخدم العلم ليخدم الأمَّة فيخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذه القراءة هي التي يجب أن تكون عمود برنامج الدراسات العليا في أي جامعة، فمرحلة الدراسات العليا الشأن فيها أنها مرحلة صناعة الباحثين وصناع المعرفة، وهذا يستوجب أن يكونَ الأمر فيها منظورًا إلى النوعِ والكيف لا إلى الوفرة العددية، ولا سيما في العلوم المستمدة من الكتاب والسنة، ولسان العربية.

القراءة الثالثة:

استبصار منهاج صَانعه في الإعراب عمَّا أنتجه تفكيره السابق، وهل كان تعبيره مطابقًا مقتضى حال تفكيره وحال ما يفكر فيه، والمقصد الذي صنع له ذلك السفر ذلك أنَّ كلام الأعيان من العلماء في أسفارهم كلامٌ بليغ، كمثل بلاغة قصيدة من عيون الشعر العربي، لا تقل البلاغة فيه عمَّا في تلك القصائد، فبيان عبد القاهر في كتابيه: (أسرار

البلاغة)، و(دلائل الإعجاز) نصٌّ بليغ جديرٌ بأن يكون مناط مدارسة جادة ودقيقة ومحيطةٍ ومتغورة، تستبصرُ مدَى تحقق جوهر (البلاغة فنًّا) في تعبيره.

وجوهر (البلاغة الفنية الإبداعية) الَّتي يمارسُها الشعراء وكلُّ بليغ؛ إنَّما هو مطابقة الكلامِ الفصيح لمقتضى الحال، بكلِّ ما تتسعُ له كلمة (الحال)، منها حال ما يتكلمُ فيه، وحال ما يتكلَّم له، وحال من يكلم بِه، وحال مَن يتكلم، وحال الزَّمان الذي يتكلم فيه ... وهكذا.

وهذا يتحقق في بيان العلماء في أسفارهم، ومن لم يكن مقتدرًا على أن يستبصر الخصائص التركيبية والدلالية التي تُحَسِّنُ المعاني في فؤاد المتلقي الرَّشيد، فتتمكن فيه لا يكون البتة أهلًا للقراءة (الاحترافية).

القراءة الرابعة:

قراءة السفر البلاغيِّ في منتج الإبداعِ الأدبي لِلعصورِ الذهبية، ولا سيما ما قبلَ المبْعثِ، والقرون الثلاثة الهجرية الأُول، ثُمَّ قراءته في بيان الوحي قُرآنًا وسنَّةً.

هذه القراءةُ الرَّابعةُ هي فاتحةُ الطريقِ إلى تطوير العقلِ البلاغي العربي وتَجديده؛ ذلك أن هذا العلم لَنْ يتجدد بما يسترفد من خارج ما هو عربيٌّ قحٌّ، فالمذاهبُ اللغوية والأدبية والنقدية المستنبتة في ثقافات أعجمية لا تتوافقُ مع العقلِ العربيِّ القحِّ[١].

وطالب (علم البلاغة العربي) إذا لم يكن ذا اقتدارٍ على الوفاء باستحقاقات هذه القراءة (الاحترافية) للبيان: بيان الوحي قُرآنًا وسنة، وبيان الإبداع البشري شعرًا ونثرًا أدبيًّا أو علميًّا؛ فحق عليه ألَّا يُذلَّ نفسه بتعريضها لما لا تطيق.

رَوَى الترمذي وابن ماجه في كتاب (الفتن) من سُنَنِهِ، وأحمدُ في مسندِه؛ من حديثِ حُذَيْفَةَ ابن اليَمـان -رَضِي اللهُ عَنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»،

(١) لو كنتُ لجعلت برنامج الدراسات العليا في السنتين التمهيديتين لتخصص البلاغة هو القراءة التحليلية التدبرية عقلًا وذوقًا لأبواب (علم البلاغة العربي) ممثلة في كتابي عبد القاهر، ثم في(المطول) في ديوان الشعر العربي الجاهلي، بحيث يقرأ طلاب العلم مع شيخهم قضايا ومسائل هذا العلم، ومذاهب العلماء فيها في قصيدة من القصائد الجاهلية، ويناقشون آراء العلماء في القضية أو المسألة البلاغية في القصيدة، ويكون معالجة هذه القضايا من واقع الإبداع الشعري، وليس شرح الشيخ ما قال عبد القاهر أو غيره بعيدًا عن الشعر، ثم يكلف الطلاب بقراءة القضايا المقررة عليهم في قصيدة أو قصيدتين جاهليتين وحدهم؛ ليكون ذلك هو مناط الاختبار التحريري والشفهيِّ، إن قراءة الشعر الجاهلي قراءة محيطة محكمة متغورة هو السبيل الأمجد الأحمد لتطوير العقل البلاغي العربي وتجديده، فهل يسعى القائمون على الأمرَ إلى مناقشة هذا المقترح، ووضع منهاج عملي محكم لتحقيق ذلك؟ اللهم قد بلغتُ اللهمَّ فاشهد.

قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»[٢].

وروى الرُّوَيَاني في مسنده من حديث أبي موسَى الأشعري -رَضِي اللهُ عَنه- قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَن تولَّى عملًا، وهو يعلم أنه ليس له بأهل فليتبوأْ مَقعدَهُ من النارِ»[٣].

ومما يُعِينك على إتقان ما أنت قائمٌ له أن تستحضر ثمرة ما ستبذله من عمرك وجهدك في خدمة هذا العلم وإتقانه، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)[٤].

جُمعة القول:

كتاب (دلائل الإعجاز) قائم لتأسيس (علم أصولِ فَهْمِ إعجازِ بلاغة الذِّكر الحكيم) وحقٌّ على أهلِ العلمِ وطلَّابهِ أن يرفعُوا من قواعد هذا العلم التي أسسها الإمام عبد القاهر الجرجاني -رضي الله عنه- وعمن أحبه في الله تعالى، واللهُ المسْتعانُ علَى طاعَتِهِ.

(٢) لا يراد من هذا البيان النبوي الحكيم أن يخلد المسلم إلى الأرض ولا يتصدى للعصيات بدعوى أنه لا يطيق؛ بل هو دعوة إلى أن يُهيِّئ نفسه للعصِيَّات، فلا تأتي وتجده خوَّارًا يريد أن ينقض من قبل أن تحوم حوله، هو دعوة إلى اتخاذ العدة للقيا كل عصيٍّ متمرد من وقائع الحياة.

(٣) في هذا الحديث حثٌّ بالغ على أن يعمل المرء جاهدًا على أن يكون أهلًا لما يقوم به من عمل، فإن لم يحمل نفسه على ذلك، فخير له أن يدعه لغيره ممن هو أهلٌ له؛ كيما لا يقع في الأرض فساد مبير؛ ذلك أنه إذا أسند الأمر إلى غير أهله فسدت الحياة، وإذا ما فسدت فانتظر الساعة، وأنت ترى أن كل ما نحنُ فيه من فساد في كل مناحي الحياة هو أن الأمور أسندت إلى أهل الثقة، وليس إلى أهل الكفاءة، فكم من ذي منصب في الناس من هو أعظم منه تأهلًا لذلك المنصب، وقد توعد سيدنا رسول الله ﷺ من لم ينصح لأمته إذا ما كان عليها واليها أيًّا كانت ولايته، رَوَى البخاري في كتاب (الأحكام) من صَحيحه بسنده عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ عَادَ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ؛ إِلاَّ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ».

(٤) التح منْ إحسانك إلى نفسِك -طالبَ علمٍ نفيع- أن تتدبر حكمة جعل كل رأس المعنى القرآني في سورتها، والآية الأخيرة أو الآيات الأخيرة من السورة القرآنية هي رأس المعنى القرآني فيها، فالمعنى القرآني ينمو متصاعدًا من فاتحتها حتى يبلغ الذروة في الآية الأخيرة أو الآيات الأخيرة منها، لو أنَّك ألزمتَ نفسك وأنت تقرأ أن تجاهد لتعرف موقع الآية في السورة على مدرج المعنى المتصاعد لكنت ترقى في درجات التدبر القرآني، الذي سيكون لك -إن شاء الله تعالى- ضريعه الحسي في الارتقاء في درجات الجنة يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (التحريم: ٨).

❁ ❁ ❁